مميزات هذه النهضة

كلام إجمالي

يختلف هذا العصر عن سائر عصور آداب اللغة، كما تختلف أحواله الاجتماعية والسياسية عن أحوالها، وأهمها تأثير مدنية أوربا عليه؛ لأن الآداب العربية ما زالت من ظهور الإسلام ضمن دائرة المدنية الإسلامية، وإن تكيَّفت مع أطوار تلك المدنية، لكنها لم تخرج عن دائرتها، وكانت تنمو نموًّا داخليًّا بما يدخل فيها من ثمار قرائح أبنائها، مع ما يقتضيه ناموس النشوء من التوسع والتفرع. أما في هذه النهضة فقد أتاها النمو من الخارج — نُقِل إليها كما نُقِلت سائر أسباب المدنية الحديثة — وهي تختلف في شكلها وأسلوبها عن مدنية المسلمين، فانتقل أصحابها من طور إلى طور، كما انتقلوا في صدر الدولة العباسية عند ترجمة علوم القدماء إلى العربية، لكن الدولة العربية كانت يومئذٍ في إبان تكونها ونشاطها فهضمت ما دخل عليها من علوم الأمم الأخرى، وصبغته بصبغتها العربية الإسلامية، أما في هذه النهضة فالدولة العربية في شيخوختها، لم تقوَ حتى الآن على مقاومة تلك العوامل، فغلب تيار المدنية الحديثة على أبنائها، فاضطروا إلى السير معه رغم ما أدهشهم منه لأول عهدهم به، واستغربوه واستهجنوه لمخالفته ما تعوَّدوه.

وقد أفاض الجبرتي في ذكر ما أدهشه من أحوال الفرنساويين، فوصف موائدهم، وكيف يأكلون ويشربون ويلبسون، وما شاهده من سائر أعمالهم العلمية والكيماوية، وكتبهم المصورة وأدواتهم، وهو يمثل بدهشته هذه حال كل شرقي في أيامه؛ ولذلك كان الإقدام على تقليد الإفرنج في مدنيتهم شاقًّا على الشرقيين؛ لما تعلمه من خطر الانتقال الاجتماعي فجأة من حال إلى حال — مثل خطر الانتقال من الحرارة الشديدة إلى البرودة

دفعة واحدة، لكن الطبيعة تتدارك ذلك بما فطرت عليه الأمم من التمسك بعاداتها وتقاليدها وآدابها المتوارثة، ولا سيما ما كان متعلقًا منها بالدين أو الشرع — حتى بناء المنازل وتوسيع الشوارع مما لا علاقة له بشيء من ذلك، لا يسهل الانتقال فيه من طراز إلى طراز، فكانوا إذا لم يروا بدًّا منه استعانوا عليه بفتوى شرعية.

ذكر المرحوم علي باشا مبارك في خططه، عند الكلام عن إنشاء السكة الجديدة في القاهرة أن محمد علي باشا لما اتسع نطاق التجارة، وكثر الإفرنج في الموسكي والأزبكية، وتكاثرت المَرْكَبات، وتعسَّر السير داخل الأزقة القديمة، أراد إنشاء السكة الجديدة، فأصدر أمره بابتياع الأملاك التي تعترض هذا الشارع في مروره، لكنه لم يشرع في فتحه حتى استفتى العلماء في ذلك، فأفتوه بأن يجعله بحيث يمر فيه جملان حاملان من غير مشقة، فقُدِّر ذلك بثمانية أمتار.[1] فاعتبر كم تكون المشقة في قبول سائر أسباب المدنية التي لها علاقة بالاعتقادات والعادات، فإن منشئ الطباعة العربية في الأستانة لم يُقْدِم على ذلك إلا بعد استصدار الفتوى الشرعية، ولما أراد المصلحون بالأمس إدخال العلوم الطبيعية على الأزهر لم يستطيعوا ذلك إلا بفتوى كما سترى.

فلهذه الأسباب كان الاختلاف بين هذه النهضة وما قبلها أكثر كثيرًا مما بين العصر الماضي وما قبله — وهو ما عبَّرنا عنه بمميزات هذه النهضة، وهاك أهمها:

(١) إنشاء المدارس الحديثة.
(٢) الطباعة.
(٣) الصحافة.
(٤) روح الحرية الشخصية.
(٥) الجمعيات الأدبية والعلمية.
(٦) المكاتب العمومية.
(٧) المتاحف.
(٨) التمثيل.
(٩) اشتغال الإفرنج بآداب اللغة العربية.

فنتكلم عن كل منها على حدة، ثم نعود إلى وصف آداب اللغة العربية وترجمة أدبائها.

هوامش

(١) الخطط التوفيقية ٨٣ ج٣.